

# صورة المقدسات الإسلامية

## في شعر المحنَة الاندلسية

بِقَلْمِ دُرُّ الرَّبِيعِيِّ بْنِ سَلَامَهُ

لِعوَامِلِ الْفَنَاءِ بِكُلِّ مَا تَوَفَّرُ لِدِيْهِمْ  
مِنْ وَسَانِلْ وَإِمْكَانَاتْ، وَقَدْ كَانَ  
الْأَدْبُ مِنْ بَيْنِ الْأَسْلَحَةِ الَّتِي  
وَظَفَوْهَا لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى مَقْوَمَاتِ  
شَخْصِيَّتِهِمْ وَتَخْلِيدِ مَآسِيهِمْ  
وَتَضْحِيَّاتِهِمْ.

وَلَمْ يَعْنِيَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ مَا عَانُوهُ  
مِنْ أَنْوَاعِ الاضطهادِ إِلَّا لِأَنَّهُمْ  
كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَتَجَرَّعُوا مَا  
تَجَرَّعُوهُ مِنَ الْؤَانِ الْعَذَابِ إِلَّا  
لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا التَّخْلِيَّ عَنِ إِسْلَامِهِمْ،  
وَلَذِكَّ لَا نَعْجَبُ إِذَا رَأَيْنَا شِعَارَهُمْ  
يَهْتَمُّونَ بِتَصْوِيرِ الْمَقْدِسَاتِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيَحْرَصُونَ عَلَىِ إِبْرَازِ  
مَا لَحِقَّهَا مِنْ تَشْوِيهِ وَذُلِّ وَهُوانِ،  
وَهُمْ لَمْ يَفْعُلُوا ذَلِكَ لِتَخْلِيدِ مَآسِيهِمْ  
فَقْطَ وَإِنَّمَا فَعَلُوهُ بِقَصْدِ تَحْريِكِ  
ضَمَانِرِ الْمُسْلِمِينَ وَإِشْعَارِهِمْ  
بِمَسْؤُولِيَّتِهِمْ عَمَّا يَقْعُدُ لِلْإِسْلَامِ  
وَالْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ، لِعَلِيهِمْ  
يَمْتَعِضُونَ لِحَالِهِمْ وَيَهْبِطُونَ  
لِتَخْلِيَّصِهِمْ مِنْ مَحْنَتِهِمْ. وَقَدْ لَاحَظْنَا  
مِنْ خَلَالِ تَبَعُّنَا لِلشَّعْرَاءِ، وَهُمْ

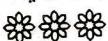
تَعْدُ مَحَنَةُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ  
فِي الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَكْبَرِ الْمَحَنِ الَّتِي  
عُرِفَّهَا تَارِيخُ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمِنْ  
أَكْثَرِهَا طُولًا وَأَشَدُهَا ضَرَارَةً  
وَوَحْشَيَّةً -بِتَفَاقِقِ مَعْظَمِ  
الْمُؤْرِخِينَ (١)- حِيثُ بَدَأَتْ مَعَ  
سُقُوطِ مَدِينَةِ بَرْبِشْتَرِ فِي أَيْدِيِّ  
الصَّلَبِيِّينَ سَنَةَ (٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م)  
وَاسْتَمْرَتِ الصَّلَبِيَّةُ بَعْدَهَا فِيِّ  
إِبْلَاعِ الْأَقْلَمِيَّةِ وَالْمَدِينَ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ،  
الْوَاحِدَةِ تَلَوُ الْأُخْرَى، إِلَىَّ أَنَّ  
سُقُوطَ غَرَنَاطَةَ أَخْرَىَ الْمُعَاقَلِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م).

وَلَمْ تَنْتَهِ الْمَحَنَةُ بِسُقُوطِ  
غَرَنَاطَةَ، وَإِنَّمَا اسْتَمْرَتِ الصَّلَبِيَّةُ  
فِيِّ اضْطهادِ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
فِيِّ الْأَنْدَلُسِ بَعْدِ زَوَالِ دُولَتِهِمْ،  
فَأَجْبَرْتَهُمْ عَلَىِ اعْتِنَاقِ النَّصَارَىِّ،  
وَحَرَمْتَ عَلَيْهِمْ مَمارِسَةِ الشَّعَانِرِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَنْعَتَهُمْ مِنِ اسْتِخْدَامِ  
الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُوكُمْ  
الْإِسْلَامِ وَالْذُوبَانِ، وَتَصَدَّوْكُمْ

\* أَسْتَاذُ الْأَدْبُ الْأَنْدَلُسِيِّ، بِجَامِعَةِ قَسْطَنْطِنْيَةِ.

ركنه وأصبح مهدداً بالسقوط، وهو في جميع الحالات مهدد بالضياع أو بالموت أو بالانهيار، ولذلك نراه يستجد بالعرب - لعلهم يعيدون تمييد سبيله أو يسعفونه بجرعة ماء تحفظ عليه حياته وتمكنه من اجتياز ما هو فيه من قفار مهلكة، أو يدعمنون ركنه المتتصدع ليحول بينه وبين ما يتهده من سقوط و انهيار -  
فيقول (2):

أنتم أحق بنصر دين نبیکم  
وبكم تمهد في قديم الأعصر  
أنتم بنیتم رکنه فلتدعموا  
ذلک البناء بكل العس اسر  
ضحی الهدی يشکو الظما و لاد  
تم ظل و ری كالربيع المفتر



الذین نادکم و فوق سروجکم  
غوث الصریخ و بغیة المستنصر  
لم یبق للإسلام غیر بقیة  
قد وطنت للحداد المتنکر  
والکفر متند المطالع و الھدی  
متنمسک بذناب عیش أغیر  
لوصور الإسلام شخصا جاعکم  
عمدا بنفس الوامق المتحریر  
لو أنه نادى لنصر خصمکم  
ودعاکم يا أسرى يا معشری

وینظر ابن الخطیب إلى  
الإسلام ، في محنّته ، فيراه حينا  
نور الله الذي أحاطت به ظلومات  
الکفر وكادت تطفئه ، ويراه حينا

يتحدثون عن محنّة الإسلام في  
الأندلس ، أنهم قد تناولوه من  
زاويتين متكاملتين ؛ فنظروا إليه  
من حيث هو عقيدة وفكرة مجردة  
، كما نظروا إليه محسدا في  
 المقدساته من معالم حضارية  
وشعائر دينية . وسئلترزم في تتبعنا  
لألوان هذه الصورة بنظرية  
الشعراء ، فنبدأ بجمع ما تعلق منها  
بالإسلام من حيث هو عقيدة  
مجردة ، ثم نعود لاستكمال الجانب  
الثاني من الصورة بتجميع ما  
تعلق من تلك الألوان بال المقدسات  
الإسلامية .

### أولا: الإسلام :

لقد تعددت أوضاع الإسلام ، في  
محنته ، كما تعددت أوضاع  
الأندلس والأندلسيين في محنته ،  
فحينما تشتت به الأزمة ويضيق  
عليه الخناق نراه يتآلم و يستصرخ  
مستغيثا ، وحينما يغلب على أمره  
ويزحر عن عرشه نراه يسقط  
صريعا ، أو يضطر إلى الرحيل  
عن مواطنه فيرحل مقهورا ذليلا .  
وقد نظر ابن سهل الإشبيلي  
إلى الإسلام فرأه يعاني من  
مخاطر شتى ، فهو مخلوق توعرت  
طريقه بعد أن كانت ممهدة ، وهو  
مسافر استنفذ زاده من الماء و  
اشتد به الظماء حتى أشرف على  
الهلاك ، أو هو بناء سامي تزعزع

حيثا آخر، حقا انحسر نوره عن  
الجزيرة الأندلسية لتأفها ظلومات  
الكفر، فيستتجد له المغاربة  
قائلا: (6)

فتحِ الجَزِيرَةِ مَا سَنَ أُولَكُمْ  
فَانْتَبَثُوا لِلْهَدَى فِي أَرْضِنَا قَدْمًا  
يَا حَسْرَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا لِأَنْدَلُسِ  
مَهْمَا اسْتَطَالُ بِهَا التَّلْثِيلُ وَاجْتَرَمَا  
لَمْ يَبْقَ لِلْحَقِّ فِي شَتَى مَطَالِعِهَا  
نُورٌ فَأَصْبَحَ لَيلَ الْكَفَرِ مَرْتَكِمَا



وينظر ابن الأبار إلى الإسلام،  
في الأندلس، فيراه قد أصبح وحيداً  
ذليلاً، بعد أن تخلى عنه أنصاره  
وأسلموه إلى أعدائه، فيقول  
متحصراً عليه وعلى تلك الربوع  
التي ترك فيها: (7)

وَحَدِيثَهُ كَمْ عَنِ الْأَفْقِ الَّذِي  
تَصَفُّ الْجَنَانَ تَلَاعِهِ وَبَطَاهِهِ  
تَجْرِي حَثِيثًا تَحْتَهُ أَنْهَارِهِ  
وَتَمِيسُ لِيَنَا فَوْقَهُ أَدَوَاهِهِ

قد أسلم الإسلام فيه إلى العدا  
فاسأه برح لا يتاح براهم  
وتمتزج صورة الإسلام بال المسلمين  
عند شاعر طليطلة المجهول، فيراه  
صريعاً يجب على المسلمين أن  
يهبوا للأخذ بثاره، كما يجب عليهم  
أن يبكوه بدمائهم الحارة ، لأن  
الدموع مهما كانت غزيرة لا تكفي  
لتخفيف ما تركه مصرعه من  
أحزان وألام في النفوس، حيث  
يقول: (8)

آخر مخلوقاً تشتت به الأرماء  
ويشرف على الهلاك فيمد يده طلباً  
للنجدة، ولذلك يستصرخ له  
المغاربة قائلا: (3)

إِخْوَانَا لَا تَنْسَوْا الْفَضْلَ وَالْعَطْفَا  
فَقَدْ كَادَ نُورُ اللَّهِ بِالْكَفَرِ أَنْ يَطْفَأْ  
وَإِذَا بَلَغَ السَّيْلَ الزِّبَارَ كَوَا  
فَقَدْ بَسْطَ الدِّينَ الْحَنِيفَ لَكُمْ كَفَا  
فَقَوْمُوا بِنَصْرِ الْحَقِّ فَيْنَا فَقَدْ عَفَا  
وَهُبُوا لِنَصْرِ الدِّينِ فَقَدْ أَشْفَا



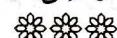
وينظر ابن المرحل إلى الإسلام  
فيجده يستغيث ويستنصر المسلمين  
وهو مشرف على الاستسلام  
لأعدائه إن لم يتداركه أنصاره بما  
يشد أزره فيقول: (4)

اسْتَنْصِرُ الدِّينَ بِكُمْ فَاسْتَقْدِمُوا  
فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسْلِمُوهُ يَسْلِمُ  
لَا تَسْلِمُوا الْأَسْلَامَ يَا إِخْوَانَا  
وَاسْرُجُوا لِنَصْرِهِ وَالْجَمْوَا



وينظر ابن طفيل إلى الإسلام  
فيجده بحاجة إلى من ينصره و  
يشد أزره ، في محتته، فيستنصر  
له المغاربة قائلا: (5)

وَقَوْمُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةً ثَانِيَةً  
وَفَنُوا إِلَى التَّحْقِيقِ فِينَهُ رَاغِبٌ



أما ابن هارون فيرى الإسلام  
مخلوقاً تزحررت قدميه عن  
أوضاعها، وأصبحت بحاجة إلى  
من يعيد إليها ثباتها، حيناً، ويراه



فجددوا من رسوم للهوى درس  
هناك يسكن فيها الروم والمور



وينظر إليه ابن الأبار ، بعد هزيمته ، فيراه مخلوقا قد غلب على أمره ، وأضطرته الهزيمة إلى الرحيل عن دياره - التي احتلها الشرك المزهو بانتصاره - فغادرها والحزن يمزق قلبه ، ولو عة الفراق تفتت كبده ، حيث قال:(12)

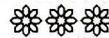
مدائن حلها الإشراك مبتسما  
جدلاً وارتحل الإيمان مبتسم  
وبعد هزيمة الإسلام و اضطراره  
إلى الرحيل عن دياره التي احتلها  
الكفر ، بعد أن زحر حمه عنها ، ينظر  
إليه أبو البقاء الرندي فيراه ملتفاعاً  
لفراقها ؛ يمزق الأسف قلبه ،  
وتنهمر الدموع من عينيه ، وهو  
ينظر إلى دياره التي غلب عليها ،  
وأخرج منها ذليلًا مقهورا ،  
فيقول:(13)

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف  
كما بكى لفارق الألف هيما  
على ديار من الإسلام خالية  
قد أفترت ولها بالكفر عمران



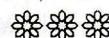
وبعد رحيل الإسلام عن  
الأندلس نرى بعض الشعراء  
يتمنون عودته إلى ربوعها ، ولكن  
أصواتهم لا تدعو أن تكون نوعا

خذوا ثار الديانة وانصروها  
فقد حامت على القتل النسور  
مضى الإسلام فابك دما عليه  
فما ينفي الجوى الدمع الغزير



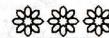
وينظر ابن عميرة إلى الإسلام  
فيجد أعداءه من المشركين قد  
حبسوه وضيقوا عليه الخناق  
ومرقوا أسلاهه ؛ التي تناشرت  
وتناشر معها الأمل في إدراك ثاره  
فيقول:(9)

وعزيمة للشرك جمع بالهوى  
أنصارها إذخانه أنصاره  
قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا  
آثاره أم كيف يدرك ثاره؟



ويبدو الإسلام ، عند أبي  
حفص الهاوزني ، بناء عتيدا هده  
الصلبييون في حملتهم المخربة  
على بر بشتر ، حيث قال:(10)

فقد جاء أمر هـ شرع محمد  
وما مخبر عن حالة مثل شاهد



وينظر القرطاجي إلى الإسلام  
فيراه بناء قد اندثرت  
معالمه، وامحت رسومه ، بعد أن  
تداولته الحملات الصليبية  
المخربة ، ومع ذلك فإنه لا يفقد  
الأمل في بعث تلك الرسوم  
وتتجديدها على يد أبي يحيى  
الحفصي ، صاحب بجاية ، الذي  
خطبه قائلًا:(11)

وسيلة الاستعارة التي مكنتهم من تصوير الإسلام في أوضاع أكثر تعبيرا وأكثر إيحاء. ولكي تأخذ الاستعارة مكانتها، كوسيلة من وسائل التصوير الفني، يستحسن إلا تتوقف بها عند التفسير القديم الذي يعدها نوعا من التشبيه، حين يشرح صورها، فيقول مثلا في شرح صورة:

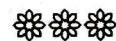
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف



إن الشاعر قد شبه الإسلام بانسان ثم حذف المشبه به و أنقى على بعض لوازمه كالبكاء والتأسف . فهذا التفسير يهتم ، قبل كل شيء ، بالمحافظة على الحدود الموضوعية لا بين المشبه والمشبه به، ولكن "المشابهة الموضوعية لا وجود لها في الاستعارة غالبا ... فالاستعارة بنت الحدس، والحس تعاطف يتجاوز المشابهة ولا يتقيد بها..." (16) وفكرة التعاطف ، كما هو واضح ، لا وجود لها في تفسير القدماء للصورة الاستعارية ، ولذلك يستحسن أن نستعين بالتفسير الحديث الذي يعطي الاستعارة بعدها نفسيا وفنيا يجعلها من أكثر الوسائل التصويرية قدرة على كسر الحاجز بين الموضوعي والذاتي ، إذ بواسطتها يستطيع

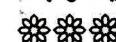
من الحنين إلى عهد مضى وتولى ، كما نرى عند الدقون حينما نظر إلى غرناطة فرأها موحشة ، بعد أن رحل عنها الإسلام ، وتنمى أن تستعيد أنها بعودته إلى ربوعها ، فقال ، وهو يدرك استحالة أمنيته: (14)

وهل يعود لها الدين الذي أنس  
به وقد أیست من فتح أبدال



وعلى الرغم من تالم شاعر المرية المجهول لغربة ما تبقى من الإسلام في الأندلس ، وتنمى أن لو لم يولد ، أو مات قبل أن يصاب الإسلام بهذه الكارثة التي مزقت القلوب وأسخت العيون فإنه يتمنى عودته إلى ربوعها ، ويحن إلى سماع الأذان في أرجانها ، فيقول: (15)

ويَا غربة الإسلام بين خلاتها  
ويَا عترة أتى يقال عثورها ؟  
ويَا ليت أمي لم تلدني و ليتني  
بليت ولم يلف فوادي حرورها  
ويَا ملة الإسلام هل لك عودة  
لأرجانها يشفى الصدور صدورها  
وهل تسمع الأذان صوت الأذان في  
معالمها يعلو بذلك عقيرها ؟



وإذا كان الشعرا قد اعتمدوا ، في رسمهم لصورة الإسلام ، على عدد من التشبيهات ، فإنهم قد اعتمدوا ، أكثر من ذلك ، على

التشبيهات - على مجموعة من الاستعارات؛ التي ساعدته على تنويع لوانه، بين التجسيد "الذي يعني تقديم المعنى في جسد شيء أو نقل المعنى من نطاق المفاهيم إلى المادية الحسية" (18) والتجسيم "الذي يسعى عن طريقه الشاعر إلى إيصال المعنى المجرد مرتبة الإنسان في قدرته واقتداره" (19). وهكذا تتجلّى صورة الإسلام (العقيدة) فتبدو شبيهة بصورة الاندلسيين، في ضعفها، أمام طغيان صورة الصليبية التي تتعدد أسماؤها ف تكون كفرا وشراكا وتثليثا...

وليس غريبا أن ينهزم الإسلام، في هذا الصراع وبينهما، فهو وإن كان من الناحية الموضوعية فكرة مجردة مُستقلة بذاتها عن الاندلسيين، يظل في الحقيقة مرتبًا بحياتهم ومجسدا لظروفهم ومشاعرهم؛ التي لم تكن، في الواقع، إلا ظروف هزيمة ومشاعر قهر وانهيار كما رأينا، وكما سنرى في صورة المقدسات الإسلامية الأخرى.

### ثانيا : المقدسات الإسلامية:

لم يتوقف الصليبيون عند محاربة العقيدة الإسلامية، من حيث هي فكرة مجردة، ولم يكتفوا

الشاعر أن ينقل أحاسيسه ومشاعره إلى العالم المرضوعي، وبذلك يحقق نوعا من التكامل بين ذاته ومحيطه الخارجي الذي يصبح شريكا له في معاناته.

وقد تمكّن الشعراء بالاعتماد على وسيلة الاستعارة من تجسيد الإسلام وتجسيمه، وهذا ما رأيناه عند ابن سهل الشيبيلي وهو يصور معاناة الأنجلوس حين ناشد العرب أن يهبوا لإنقاذهما، فقال: (17)

أنت أحق بنصر دين نبيكم  
وبكم تمهد في قديم الأعصر  
أنتم بنيتـم ركـنـه فلتـدعـمـوا  
ذـاكـ الـبـنـاءـ بـكـلـ أـلسـنـ أـسـمـرـ  
أـضـحـىـ الـهـدـىـ يـشـكـوـ الـظـمـاـ وـلـأـتـمـ  
ظـلـ وـرـيـ كـالـرـبـيعـ الـمـمـطـرـ

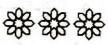
❖❖❖  
الدين ناداكم وفوق سروجكم  
غوث الصريخ وبغيه المستنصر  
لم يبق للإسلام غير بقية  
قد وطنـتـ للحادـثـ المـتـنـرـ  
والـكـفـرـ مـتـدـ المـطـالـعـ وـالـهـدـىـ  
ستمسـكـ بـذـنـابـ عـيشـ أغـسـيرـ  
لو صورـ الإـسـلـامـ شـخـصـاـ جـاءـكـمـ  
عـمـداـ بـنـفـسـ الـوـاقـمـ الـمـتـحـيرـ  
لو آنـهـ نـادـيـ لـنـصـرـ خـصـمـكـمـ  
وـدـعـاـكـمـ يـاـ أـسـرـتـيـ يـاـ مـعـشـرـيـ

❖❖❖  
فقد اعتمد ابن سهل في رسم صورته - بالإضافة إلى بعض

طليطلة التي تحولت إلى  
كناس، فقال: (21)  
طليطلة أباح الكفر منها  
حاماها إن ذا نبا كبير



مساجدها كناس أي قلب  
على هذا يقر ولا يطير؟



وإذا كان مجهول طليطلة قد  
أعطانا صورة موجزة ، وإن كانت  
مؤثرة ، عن المسجد الذي أصبح  
كنيسة ، فان ابن المرابط لا يقنع  
بالإجاز - وإن كان قد فقد تجلده -  
وإنما يقف أمام المسجد ويتألم في  
رصد ما طرأ عليه من تحولات ،  
فيراه قد تحول إلى كنيسة ، ويرفع  
رأسه إلى الأعلى فيرى القدس  
والناقوس جاثمين على منارة  
المسجد ، ويمتد نظره إلى داخله  
فيراه قد تحول إلى وكر لممارسة  
الفواحش ، من تعاطي الخمر ولحم  
الخنزير ، ولكنه لا يملأ إلا أن  
يتأسف وهو يرى المسجد قد أُفقر  
من المسلمين الراكعين الساجدين ،  
وغضت أرجاؤه بجباية  
المشركين ، فيقول: (22)

كم جامع فيها أعيده كنيسة

فأهلك عليه أسى ولا تتجلد  
القدس والناقوس فوق مناره  
والخمر والخنزير وسط المسجد  
أسفا عليها أفترت صلواتها  
من قنتين وراكعين وسجدة

بحريم ممارسة شعائرها على  
الأندلسين ، حينما غلبوا على  
أمرهم ، وإنما أمعنوا في الإساءة  
إلى كل ما تشتت فيه رائحة الإسلام  
من مظاهر ثقافية وultural عمرانية ،  
فاحرقوا الكتب وحرموا على  
المسلمين النظافة ، فخرموا  
الحمامات ، وأصبح الاستحمام ،  
الصلوة ، جريمة كافية للمثول أمام  
محاكم التفتيش ، ودليلًا على أن من  
مارسه لا زال على صلة  
باليسلام . (20)

وقد تحدث الشعراء عن كل  
هذه الألوان من العسف والقهر ،  
ولكنهم لم يتوقفوا عند شيء ، من  
المقدسات الإسلامية ، كما توقفوا  
عند المساجد؛ التي هي شعار  
الإسلام ومظهره الحضاري  
المادي الثابت ، فتناولوا ما طرأ  
على صورة المسجد من تغيرات ،  
وتتبعوا ما لحقه من تشوهات  
 وإهانات ، عبر تاريخ محتله  
الطوويل ، ولم يتركوه إلا بعد أن  
رسموا لمؤسساته صورة تعد من  
أجمل صور المحنّة واكثرها إشارة  
لمشاعر الحزن والأسى .

وقد وضع مجهول طليطلة أول  
لون في صورة مأساة المسجد ،  
حينما ذهبت نفسه حسرات ، وطار  
قلبه فرعا ، وهو ينظر إلى مساجد

التي تحولت قبلتها، ويتأسف لوحشة مآذنها، التي كانت تتبع من أصوات المؤذنين، مكيرة مهلاة، ويمتد نظره إلى داخل المسجد فيرى ويسمع محرابه وهو يبث لمنبره أحزانه وأشجانه، ويسمع آيات القرآن وسوره، وهي تشكو وحشتها ووحدتها، بعد أن فقدت من كان يعني بتلاوتها وترتيلها من المؤمنين؛ الذين كانوا يحرضون على الاحتفال بخاتمتها كل شهر فيقول:(25)

فواهستاه من مساجد حولها  
وكانت إلى البيت الحرام شطورها  
ووأسفاكم من صوامع أو حشت  
وقد كان معقاد الأذان يزورها  
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى  
وآياتها تشكو الفراق وسورها

وإذا كان المحراب ، هنا ، يشكو جواه للمنبر، فإن المنبر لم يكن ذاهلا عن شكوكه، أو بمنجى عن مأساته، وإنما يراه شاعر المرية في موضع آخر ، فيجده ككل ما في الأندرس ومن فيها باكيًا مستعبرا، حيث يقول:(26)

تريك الأسى أعلامها وهي خشع  
ومنبرها مستعبير وسريرها

وبعده ينظر الدقون إلى المسجد، فيجده قد أقر من التوحيد والموحدين، وأصبح غاصا

وتعوضت منهم بكل معاند  
مستكبر مذ كان لم يتشهد



وبعد نرى ابن الأبار ، وقد طار قلبه حزنا ، وهو ينظر إلى المسجد، فيراه قد تحول إلى بيعة ، ويسمع فإذا الأذان قد تحول إلى قرع للنواقيس، ولكنه - كسابقه - لا يملك إلا أن يتلهف على ماضي المسجد الذي أصبح في نظره أطلالا، بعد أن، كان محلًا لثلاثة القرآن الكريم، فيقول:(23)

يا للمساجد عادت للعدا بيعا  
للنداء غدا أثناءها جرسا  
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها  
مدارس للمثانى أصبحت درسا



وينظر أبو البقاء الرندي إلى المسجد فيجده قد تحول إلى كنيسة خلت من كل مظاهر الإسلام، وغصت أرجاؤها بالنواقيس والصلبان، ولم يبق فيها غير المحاريب والمنابر التي تجاوיבت في البكاء على غربتها، فيقول:(24)

حيث المساجد قد صارت كنائس ما  
فيهن إلا نواقيس وصلبان  
حتى المحاريب تبكي و هي جامدة  
حتى المنابر ترثى و هي عيدان  
و يقف شاعر المرية المجهول  
متحسرا ، وهو ينظر إلى المساجد

المسجد في راه قد أهين بوحشية  
وقد صليبيين، وتحول من مكان  
مقدس طاهر إلى مزبلة تلقى فيها  
أنواع القاذورات والنجاسات،  
ويرتاع لما لحقه من ذل و هوان،  
فيصرخ قائلًا:(28)

وأها على تلك المساجد سوت

مزابل للذئاب بعد الطهارة



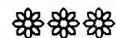
وهكذا، يمكن أن نرى أن محنّة  
المسجد قد تجلت عند الشعراء في  
ثلاث صور أساسية، فهو في  
أحسن الأحوال يحول إلى كنيسة،  
فيشحّن بالنواقيس والتماثيل  
والصلبان، وتتغير الوانه  
وأصواته، ولكنه يحتفظ، في هذه  
الحالة، بشيء من حرمته، لأنّه  
يظل محتفظاً بنوع من قداسة  
أماكن العبادة.

أما في الحالة الثانية، فيقرر  
الأعداء المنتصرون إعدامه  
حرقاً، فيعدم منفرداً، أو يُعدم بمن  
فيه وما فيه، كما نرى في تلك  
الصورة التي قدمها شاعر أهل  
الجزيرة عن أهل "أندرس" الذين  
رفضوا التنصر و انتصروا  
بجماعهم، حيث قال:(29)  
 وأندرس بالنار أحرق أهلها  
بجماعهم صاروا جميعاً كفحة



بالتماثيل والنواقيس، وأصبح منبره  
خالياً من المرشددين والوعاظ؛  
الأمررين بالمعروف والناهين عن  
المنكر، وأفقرت مكاتبته التي كانت  
مأهولة بالصبية من متعلمي القرآن  
الكريم؛ الذين كانوا يتلونه بكرة  
وأصيلاً، ولا يملك الشاعر، وهو  
يتصور ما آل إليه أمر المسجد  
وملحقاته من وحشة وذل و هوان،  
إلا أن يطلق صرخة توجع، وإن  
كان يدرك أن صرخ العاجزين لا  
يغير من واقع المأساة شيئاً، فعذر  
أنه لم يعد قادراً على احتباس ما  
يعانيه من آلام، فيقول:(27)

فلا المساجد بالتوحيد عامة  
إذ عمروها بناقوس و تمثال  
ولا المنابر للوعاظ بارزة  
للأمر والنهي أو تذكير آجال  
ولا المكاتب بالصبيان آنسة  
تنلو القرآن بأسحار و آصال  
آه على الدين والدنيا وما نفع  
آه إذا صدرت من قلب بطال



وإذا كانت ألوان صورة  
الدقون - في معظمها - مستمدّة  
من ألوان صور من سبقوه، فإنه  
قد توسيع فيها بإضافة لون التمثال  
الذي لم يستخدمه غيره، كما توسيع  
في تتبع ما طرأ على ملحقات  
المسجد من كتاتيب وصبيان...  
ويقف شاعر أهل الجزيرة -  
وهو شاعر مجهول أيضاً - أمام

الملك فرناندو و انتهاكمه لبنيو د  
معاهدة غراناتلة، التي ضمنت  
لل المسلمين حرية دينهم الدينية، حيث  
قال:(30)

وكان عهوداً كان قد غرنا بها  
ونصرنا كرها بعنف وسطوة  
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف  
وخلطها بالزبل أو النجاسة  
وكل كتاب كان في أمر ديننا  
ففي النار القوه بهزء وحقرة  
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم  
ولامصحفًا يخلّ به للقراءة



وليس عملية إحراء الكتب من  
ابتداع خيال الشاعر، وإنما هي  
حقيقة تاريخية أبرز بشاعتها عدد  
من الباحثين ، ولكنهم اختلفوا في  
تقدير كمية الكتب التي أحرقت،  
بعد عملية التنصير، فذكر  
غوغستاف لوبيون أن الكاردينال  
خيمنيس دي تيسنيروس قد أحرق  
ثمانيين ألف مخطوط (31) و أورد  
الكونت دي سيركور أن بعضهم  
قدرها بـ مليون كتاب أو يزيد(32).  
وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال  
الوحشية ، فقد حرم على المسلمين  
- كما قلنا - ممارسة شعائرهم  
الدينية من صلاة وصيام،  
وشرعت عقوبة الحرق لمن  
يضبط متلبساً بجريمة الصوم أو  
الصلاوة، وللتتأكد من حسن انتهاك  
المسلمين لأوامر دينهم، كانت

وأما الحالة الثالثة، فهي أبغض  
الحالات وأشنعها على الإطلاق  
وأكثر تجسيداً للحقد الصليبي على  
الإسلام ومقدساته، وفيها يتحول  
المسجد إلى مزبلة أو خمارة... أو،  
فيفقد صفة الإسلام ويفقد معها  
كل ما يلزم لأماكن العبادة من  
قداسة واحترام.

وإذا كان المسجد قد خطى  
بالكثير من عنایة الشعراء نظراً  
لمكانته العظيمة في الإسلام - فإن  
بقية المقدسات الإسلامية لم تحظ  
بمثل ذلك من العناية، إذ لم يلتفت  
إليها الشعراء إلا قليلاً.  
فالمحفظ - على أهميته  
وعلو مكانته - لم نعثر له إلا على  
صورة واحدة، عند شاعر أهل  
الجزيرة، وهي تعود زمنياً إلى ما  
بعد عملية التنصير القسري وما  
تبعها من محاولات لاجتثاث آثار  
الإسلام من الأندلس، ومن أهمها  
المحفظ الذي أحرق بطريقة  
وحشية مشينة، تعكس ما كانت  
تحمله الصليبية من حقد على  
الإسلام ومقدساته، إذ لم يكتف  
الصلبيون بإحراءه، وإنما أمعنوا  
في الإساءة إليه حينما لطخوا  
قداسته بالزبل والنجاسة، وكذلك  
عملت بقية الكتب الدينية  
والعربية، كما ذكر شاعر أهل  
الجزيرة وهو يتحدث عن غدر

لعموم المقدسات الإسلامية،

فقال:(35)

كم نكروا من معلم كم دمرروا  
من عشر، كم غيروا من عشر؟  
كم أبطلوا سنن النبي وعطلا  
من حلية التوحيد ذروة منبر؟



ولا يخفى ما تلوح به "كم الخبرية" - التي تكررت أربع مرات في هذين البيتين - من شمولية التخريب وعموم أفعال التشويه والتكرر التي استهدفت عدداً كبيراً من الشعائر وال المقدسات الإسلامية.

وإذا كانت المحننة قد تجلت - كما رأينا - من خلال الأندلسين، حيناً، ومن خلال الإسلام ومقدساته أحياناً، فإنها في الحقيقة محننة واحدة هي محننة الإنسان التي فاضت لتشمل الإسلام والمقدسات الإسلامية؛ التي لا تغدو، في الواقع، أن تكون امتداداً لمحننة الإنسان الأندلسي. ولهذا لا نعجب إذا رأينا الشعراء، whom يرسمون صورة المقدسات الإسلامية، يعتمدون على الاستعارة أكثر من غيرها، فهم وإن اعتمدوا اللغة التقريرية المجردة أحياناً، والموحية أحياناً، وأعتمدوا على التشبيه أحياناً أخرى، يظل اعتمادهم على

الكنيسة تفسد عليهم صيامهم بإجبارهم على تناول الطعام أثناء النهار، كما قال شاعر أهل الجزيرة:(33)

ومن صام أو صلى ويعلم حاله  
ففي النار يلقوه على كل حالة

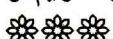


وفي رمضان يفسدون صيامنا  
بأكل وشرب مرة بعد مرأة  
ولم يمنع المسلمين من ممارسة  
شعائرها فقط، إنما أجبروا على  
اقتراف بعض المحرمات كأكل  
لحם الجيف والخنازير، كما منعوا  
من ذكر نبيهم بخير، وأمروا بسبه  
كلما ذكر اسمه أمامهم. وقد نقل  
شاعر أهل الجزيرة بعضاً من هذه  
الشناعات في رسالة إلى السلطان  
العثماني، حين خاطبه على السنة  
أهل الأندلس قائلًا:(34)

سلام عليكم من عجاز أكرهت  
على أكل خنزير ولحم الجيفة



وقد أمرتنا أن نسب نبينا  
ولاذكره في رخاء وشدة  
وقد سمعوا قوماً يغفون باسمه  
فأدركهم منهم أليم المضرة  
وعاقبهم حكامهم وولاتهم  
بضرب وتغريم وسجن وذلة



وقد صور ابن سهل، قبل ذلك،  
بعضاً من انتهاكات الصليبيّة

- الهادي التازي. بيروت: دار الأندلس، 1964م.ص 412.
- (6) ابن عذاري، المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين - ط 1. تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني و آخرين. (المغرب) الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985م. ص 384.
- (7) ابن الأبار، محمد. ديوان ابن الأبار. تحقيق : عبد السلام الهراس. تونس: الدار التونسية للنشر، 1985م. ص 131.
- (8) المقرري، أحمد. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق : إحسان عباس. بيروت: دار صادر ، 1968م. ج 4 ص ص 484-485.
- (9) الحميري، محمد. الروض المغطار في خبر القطران. تحقيق:إحسان عباس.بيروت: 1975م.ص 99.
- (10) ابن بسام، علي. الذخيرة في محسن أهل الجزيرة. تحقيق:إحسان عباس، ليبية- تونس: الدار العربية للكتاب، 1978م. 1/2 : 87.
- (11) القرطاجني، حازم. قصائد ومقطوعات. تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. تونس: الدار التونسية للنشر، 1972م. ص: 124.
- (12) ابن الأبار - الديوان. 396.
- (13) المقرري - نفح الطيب. 4 : 487.
- (14) المقرري، أحمد. أزهار الرياض في أخبار عياض. تحقيق: مصطفى السقا وأخرين. (المغرب) المحمدية: مطبعة فضالة، 1978م ج 1 ص 106.

الاستعارة أكثر وضوحاً، لأنها هي التي تمكّنهم من نقل معاناتهم إلى العالم الخارجي، إذ بواسطتها تتخلّى الأشياء والمفاهيم المجردة عن موضوعيتها لترتفع إلى مرتبة الإنسان، ولتصبح امتداداً لأحساسه ومستودعاً لمساعره الذاتية، بعد أن أزال الشعراء ما بينها وبينهم من حدود موضوعية، بواسطة تلك الجسور الفنية التي أقاموها لبناء عالم شعرى، يمتزج فيه الموضوعي بالذاتي، وتختيم الوحدة والانسجام على مختلف مكوناته المأساوية .

#### الهوماوش

- (1) حومد، أسعد .محنة العرب في الأندلس. ط 1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1980م. ص: 5-11.
- (2) ابن سهل الأندلسي. ديوان ابن سهل. تقديم: إحسان عباس.بيروت: دار الصادر ، 1960م . ص: 40-142.
- (3) ابن الخطيب، لسان الدين-ديوان الصيد ولهام ولهام والماضي والكهان. ط 1. تحقيق:محمد الشريف قاهر . الجزائر: ش.و.ن.ت، 1973. ص: 630-628.
- (4) كنون، عبد الله. النبوغ المغربي في الأدب العربي. ط 3.بيروت:دار الكتاب اللبناني، 1975م،ص: 03-25.
- (5) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك. تاريخ المن بالإمامية. ط 1. تحقيق : عبد

(32) SNED . p 208.  
 CIRCUIT le Comte  
 Albert de. Histoire des  
 Mores Mudéjares et des  
 Morisques. Paris: DENTU  
 t2 p 43.1846.

- (33) المقري . أزهار الرياض . 1 : 110 .  
 نفسه . ص 112 .  
 (34) (35) ابن سهل . الديوان . 142 .



- (15) خفاجة، عبد المنعم. قصة الأدب  
 في الأندلس، بيروت: مكتبة المعارف،  
 1962م. 1: 134 .  
 (16) ناصف، مصطفى. الصورة  
 الأدبية. ط 3. بيروت: دار الأندلس،  
 1983م. ص: 140 .  
 (17) ابن سهل. الديوان . 142-140 .  
 (18) الرباعي، عبد القادر. الصورة  
 الفنية في شعر أبي تمام . ط 1 . (الأردن)  
 (أربد: جامعة اليرموك، 1980-ص:  
 168 .  
 (19) نفسه . ص: 170 .  
 (20) كاردياك، لوبي. الموريسيكيون  
 الأندلسيون والمسيحيون . ط 1. ترجمة:  
 عبد الجليل التميمي . تونس - الجزائر:  
 المجلة التاريخية المغربية و ديوان  
 المطبوعات الجامعية، 1983م . ص:  
 41 .  
 (21) المقري . نفح الطيب . 4: 483-484 .  
 (22) ابن خلدون، عبد الرحمن. تاريخ  
 ابن خلدون . بيروت: دار الكتاب  
 اللبناني ، 1978م. ج 7 ص: 410-411 .  
 (23) ابن الأبار . الديوان . 396 .  
 (24) المقري . نفح الطيب . 4: 487 .  
 (25) خفاجة. قصة الأدب . 133 .  
 (26) نفسه . ص: 134 .  
 (27) المقري . أزهار الرياض . 1 : 107 .  
 (28) نفسه . ص: 112 .  
 (29) م ن . ص ن .  
 (30) م ن . ص ن .

LE BON GUSTAVE. (31)  
 La Civilisation des Arabes.